75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية • تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد الرابع - العدد الرابع - ١٣٩٥ — ١٩٧٥

ملاحظات حول (ديوان أبي بكر الشبلي)

بقلم
عزيز عارف

ديوان ابي بكر الشبلي كتاب يضم اشعار الشبلي الصوفي المشهور مع ملحقين الاول يجمع الاشعار التي نسبت الى الشبلي وهي ليست له ، اما الثاني فيضم الاشعار التي كان يتمثل بها . وقد توفر على جمع هذا الديوان وقام بتحقيقه وعلق حواشيه وقدم له الدكتور كامل مصطفى الشيبي استاذ الفلسفة الاسلامية في جامعة بغداد ، وصاحب المؤلفات القيمة في ميدان التصوف .

والقارىء لهذا الكتاب يدرك بسهولة مدى الجهد المضني الذي بذله فيه الاستاذ الشيبي ، وسيراه صادقا حين يقول في تصديره : « انني استفرغت وسعي كله » .

وفي الحق ان الادب الصوفي على وجه العموم والشعر منه خاصة عسير الفهم بالغ الالتواء وهو محير مربك للقارئين له وللذين يتصدون لدراسته على حد سواء ، ذلك لانه زاخر بالرموز محشود بالاشارات ، ورحم الله الحلاج فقد كان يقول: « من لم يقف على اشاراتنا لم ترشده عباراتنا » .

ولقد قرات هذا الديوان واستمتعت به وعنت لي اثناء قراءته ثمة ملاحظات رايت ان اسجلها هنا .

ولعل اول ما يستلفت النظر في الديوان هذا التفسير الجريء للنصوص والوقوف عند ظاهرها دون التمعن فيما تنطوي عليه من معان خفية .

يقول ابو العلاء عفيفي ، استاذ الشيبي ، والذي اهدى اليه هذا الديوان : « المعروف عن الصوفية اطلاقا انهم قوم لا يتكلمون بلسان عموم الخلق ولا يخوضون فيما يخوض فيه الناس من مسائل علم الظاهر ، وانما يتكلمون بلسان الرمز والاشارة .. ولذا كان الحذر اللازم ما يلزم الناظر في اقوالهم حين يحللها او يؤولها او يحكم عليها ، فكثيرا ما زلت اقدام الباحثين في اساليب القوم فصرفوها الى غير معانيها او حملوها ما لا تحتمل او اخذوا بظاهرها حيث لا يراد ذلك الظاهر»(١).

ولعل الدكتور الشيبي قد احس بما يعتور الكتاب من مآخذ فقال بامانة وتواضع : « لسان حالي يردد : الاعتراف يهدم الاقتراف » . وما اراه بحاجة الى ان يعترف فهو لم يقترف ، وما دام قد استفرغ وسعه كله فلا تثريب عليه !

كل رجائي ان يتسع للاحقاتي صدر الاخ الشيبي فقد حرصت على ان اكتبها بنفس الامانة العلمية التي املت عليه دراسته للشبلي .

* *

١ ـ يقول الاستاذ الشيبي في مقدمته عن شعر الشبلي (ص ٦٥) :

« ومن الواضح ان الشبلي كان شاعرا مقلا فعلى شدة الجهد الذي بذلناه في جمع شعره لم نظفر منه الا بالقدر القليل المتضمن في هذا الديوان . وهذا الاقلال يعد من الناحية الفنية في صالح الشبلي لانه يعني صدوره عن انفعال وتجربة نفسية تمخضتا عن تسجيل لهما في ابيات تتميز ـ على قلتها ـ بمعنى مصمت لا تجويف فيه ولا حشو وانما يرد على شرط حسان بن ثابت الانصاري في قوله :

وان اشعر بيت انت قائلـــه
بيت يقال اذا انشدته صدقا
وانما الشعر لب المرء يعرضـه
على المجالس ان كيسا وان حمقـا»

ان الشيبي بهذا الكلام يأتي بفكرة جديدة في تقييم الشعر لا تستقيم مع المنطق ، فاذا ما حللنا كلامه وجدناه ينطوي على بعض علاقات تفتقر الى الترابط المنطقي ، علاقة بين (الاقلال) من جهة وبين الاجادة الفنية من جهة اخرى (كل شاعر مقل فهو مجيد) ، وعلاقة اخرى بين الاقلال من ناحية وبين الانفعال والتجربة النفسية من ناحية اخرى (كل شاعر مقل فهو منفعل مجرب) ، وعلاقة ثالثة بين الانفعال والتجربة النفسية من جانب وبين الاجادة الفنية من جانب اخر (كل منفعل مجرب فهو مجيد) .

ان هذا الكلام ظاهر التهافت ولا سند له من الواقع والا فماذا يقول في الشعراء المكثرين وكيف يفسر روائع اشعارهم ؟ وماذا يقول في المقلين العاجزين وكيف يفسر رداءة اشعارهم ؟

وفي الحق ان للشاعر المبدع سماته ومميزاته المعروفة وليس الاقلال من بينها على اي حال .

ويلاحظ ان الاستاذ الشيبي يقول هنا ان اشعار الشبلي على قلتها تتميز بمعنى مصمت لا تجويف فيه ولا حشو ، ثم يعود فيقول لنا (ص ٧٦) ان الشبلي كان « يحشو شعره بالمصطلحات الصوفية » .

---

(١) فصوص الحكم ـ محي الدين بن عربي ـ علق عليه ابو العلاء عفيفي ج١ ص ١٥ .

ويلاحظ كذلك انه اتخذ من شرط حسان بن ثابت معيارا لتقييم الشعر وتقدير قيمته الفنية . وما هو شرط حسان ؟ الاستحسان ! هو ان يقال للشاعر اذا انشد شعره صدقت واحسنت . فاي معيار هذا ! وما هو موقفنا من الشعر المتهافت اذا استحسنه الجاهلون ؟ وما هو حال الشاعر المبدع اذا انكر شعره المنكرون ؟ وكيف بنا اذا اختلف الناس في شعر شاعر فمن قائل له : احسنت ، ومن قائل له : اسات ؟!

الواقع ان البيتين اللذين استشهد بهما في هذا الموضع بدوان وكانهما قد اقحما عليه اقحاما !

* *

٢ ـ يقسم الدكتور الشيبي شعر الشبلي الى فترتين زمنيتين ، ما قبل تصوفه وما بعده ، وهو يحصي للشاعر خمسة ابيات قالها قبل تصوفه فيقول في ص ٦٧ ما يلي :

« وفيما عدا هذه الابيات الخمسة لم نجد عند الشبلي من الشعر الا ما كان متصلا بحياته الصوفية معبرا عن احواله ومواجيده في الشطر الثاني من حياته » .

ونتساءل : كيف توصل الى التمييز بين شعر الفترتين ؟ وعلى اي اساس بنى هذا الحكم ؟ أعلى ما اثبته الرواة ام على الوقائع التاريخية ؟ لم نظفر منه بجواب ، وواضح ان المقياس الذي اتخذه اساسا لهذا التمييز هو الحدس والتخمين .

عند تعليقه على البيتين التاليين :

نزلنا السن نستنا
وفينا من ترى حنا
فلما جدنا الليـ
ـل بذلنا بيننا دنا

يقول في هامش ص ١٢٥ : « هذا شعر حسي ظاهر »ويعلق في هامش الصفحة ذاتها على هذين البيتين :

تغنى العود فاشتقنا
الى الاحباب اذ غنى
وكنا حيثما كانوا
وكانوا حيثما كنا

« هذان البيتان يمثلان نظمه الحسي قبل دخوله عالم التصوف شان البيتين اللذين ذكر فيهما (السن) » .

« الحسية » اذن هي هذا الاساس ، ولكن الحسية على انها لا تصلح اساسا للتمييز ، تظهر في شعر الشاعر الصوفي قبل تصوفه كما تظهر ايضا في شعره بعد تصوفه ، واقرب مثال على ذلك الشاعر الصوفي ابن الفارض فشعره كله ظاهر الحسية، والحسية مقياس موهوم موهم ، غير محدد ولا ثابت ، يخضع للاهواء والاذواق ، وما كذلك تكون المقاييس .

ومن الطريف ان نذكر هنا ان (السراج) في كتابه (اللمع) قد رد من زعم انه يفقد حسه عند المواجيد قائلا (ص ٥٥٣) « ان فقد الحس لا يعلمه صاحبه الا بالحس لان الحس صفة البشرية .. وما دام في العبد روح ، وهو حي ، لا يزول عنه الحس ، لان الحس مقرون بالحياة والروح » .

التفريق اذن بين الشعر الحسي وبين الشعر النفسي او الروحي ، ليس له ما يسنده وليس له ما يبرره لان المعاني الروحية لا يمكن التعبير عنها بل لا يمكن ان يدركها السامع الا اذا كانت باشكال ومفاهيم حسية ، والا اصبحت طلاسم والغازا .

وهناك معنى اخر للحسية . كان يرى بعض شيوخ الادب العربي القديم ان الكلام ينبعث اما من غلو البديهة واما من كد الروية واما ان يكون مركبا منهما ، وكانوا يقولون ان (صورة الحس) في البديهة اوضح ، وان (صورة العقل) في الروية اظهر .

وذهب بعضهم الى تشويه صورة الحس في الشعر عموما لانه منظوم ، والمنظوم صناعي ، وهو يدخل في حصار العروض واسر الوزن وقيد التاليف !(٢) وليس هنا مكان الافاضة في هذا الموضوع .

* *

٣ ـ قد كان يقال : « اذا غلبتك نفسك بما تظن فاغلبها بما تستيقن » ولكن الدكتور الشيبي كان ياخذ بالظن مكان اليقين حينا ، وياخذ باليقين مكان الظن حينا اخر ، ويتردد بينهما في اغلب الاحايين . اثبت في ص ٨٨ هذا البيت على انه للشبلي :

لحا الله ذي الدنيا مناخا لراكب
فكل بعيد الهم فيها معذب

ثم عاد فقال في تحقيقه (هامش الصفحة نفسها) :

« يبدو ان هذا مما تمثل به الشبلي » . ثم يستدرك في ص ١٣٨ فيقول ان هذا البيت ليس للشبلي ولا مما تمثل به وانما هو كما ظهر له اخيرا منسوب للشبلي .

ويثبت للشبلي في ص ٨٩ هذا البيت :

فقلت : اليس قد قضوا كتابي ؟
فقال : نعم فقلت : فذاك حسبي

ثم يرجع فيشكك فيما اثبته حين يقول في الهامش : « فلعله ليس له » !

ويسجل في هامش ص ١١٢ تسعة ابيات وردت في كتاب (الزهرة) لابي بكر الاصفهاني على انها « لبعض اهل هذا العصر » ويقول عنها في هامش ص ١١١ ما يلي : « لا يبعد ان تكون للشبلي » ثم يقول ايضا : « فلعل دليلا واضحا فيما بعد يظهر على كونها للشبلي » .

واثبت للشبلي هذين البيتين (ص ١٢٣) :

والهجر لو سكن الجنان تحولت
نعم الجنان على العبيد جحيما
والوصل لو سكن الجحيم تحولا
نار الجحيم على العبيد نعيما

ثم قال عنهما في تحقيقه : « نص ابو نعيم في نقله لهذين البيتين على ان الشبلي تمثل بهما ، وذكر الشعراني انه انشدهما فلعلهما له »

---

(٢) الامتاع والمؤانسة ـ ابو حيان التوحيدي ـ ج٢ ص ص١٣٢. تحقيق احمد امين واحمد الزين .

واثبت في ص ١٢٤ ثلاثة ابيات على انها للشبلي وهي :

ذاب مما في فؤادي بدني
وفؤادي ذاب مما في البدن
فاقطعوا حبلي وان شئتم صلوا
كل شيء منكم عندي حسن
صح عند الناس اني عاشق
غير ان : لم يعلموا عشقي لمن

ثم عاد فقال عنها في تحقيقه (هامش الصفحة نفسها) :

« والقطعة ادنى الى الاستشهاد منها الى النظم » .

* *

٤ ـ تحدث الدكتور الشيبي عن صلة المتنبي بالشبلي ، فنقل في ص ٧٤ عن كتاب اللمع قولا للشبلي ، ثم قارن بين هذا القول وبين ابيات للمتنبي ، ثم اصدر بكل جراقةاره ان المتنبي قد اخذ من الشبلي !

وقبل ان اناقش هذا الراي اعود الى كتاب اللمع للسراج فاقرا في ص ٤٨٦ منه ما نصه :

« حكي عن الشبلي ، رحمه الله انه قال يوما لاصحابه : (يا قوم امر الى ما لا وراء فلا ارى الا وراء وامر يمينا وشمالا الى ما لا وراء ، فلا ارى الا وراء ، ثم ارجع فارى هذا كله في شعرة من خنصري) .

فاشكل على جماعة من اصحابه اشارته فيما قال » .

ثم يمضي السراج في تفسير هذا القول :

« اشارته فيما قال : والله اعلم ، الى الكون ، لان الكرسي والعرش محدث ، وليس في الدنيا وراءه وراء ، ولا تحته تحت لا نهاية له ، ولا يقدر احد من الخلق ان يحده او يصفه الا بما وصفه الله تعالى به ، ولا يحيط بذلك علم الخلق ، قد انفرد بعلم ذلك خالقه وصانعه .

ثم قال : ارجع فارى هذا كله من شعرة من خنصري ، يريد بذلك : ان قدرة القادر في خلق هذا كله وفي خلق شعرة من خنصري واحدة .

ويحتمل وجها اخر وهو ان يقول : ان الكون وجميع ما خلق ، وان كانت مسافته بعيدة ، وطوله وعرضه عظيما ، في كبرياء خالقه وعظمة صانعه كشعرة من خنصري بل اقل من ذلك » انتهى .

هذا القول اذن هو اشارة من اشارات الشبلي ، وقد اشكلت حتى على جماعة من اصحابه ، والسراج حين يأخذ في تفسيرها يقول : « والله اعلم » فهو غير واثق من تفسيره ، ثم هو ياتي بوجهين من وجوه تفسير هذه الاشارة .

اما الدكتور الشيبي فهو يثبت في ص ٧٤ قول الشبلي هذا نقلا عن السراج ، ثم ينقل تفسير السراج مبتورا ومشوها فيقول : « وقد عسرت هذه العبارة على الصوفية فجعلوا يفسرونها ويلتمسون وجوها من المعاني تخرج بها عن الحرج والشطح فقال السراج منهم في شرحها : (ان الكون وجميع ما خلق ـ وان كانت مسافته بعيدة وطوله وعرضه عظيما ـ في كبرياء خالقه وعظمة صانعه كشعرة من خنصري بل اقل من ذلك) » اهذا هو كل شرح السراج ؟!

ويستطرد الدكتور الشيبي قائلا : « وهو تفسير القصد منه مفهوم وليس هذا محله ، غير ان المهم في الامر انه يذكر بابيات المتنبي التي قالها في شرح شبابه آخذا من الشبلي فيما يبدو :

اي محل ارتقي اي عظيم اتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

ثم يمضي قائلا : « وسواء اكانت الشعرة في المفرق او البنصر (كذا) فهي الشعرة » .

مكانك ياأخي، لقد ابعدت! كلا، ان الشعرة ليست كالشعرة. فشعرة تشد وترخى ولكنها لاتنقطع، وشعرة تمدمعبرا للخلاص وشعرة تسل من العجين، وشعرة تسند جدارا يكاد ينقض، وشعرة يتشبث بها الغريق ، وشعرة تحل وتيه واخرى تتوارى خزيا، وشعرة كخلق الصبح واخرى مثل سواد الليل ، وشعرة مخضبة بالحناء واخرى مخضبة بالدم، وشعرة مضمخة بالطيب واخرى معرفة بالترات ، وشعرة تشد شدا ، وشعرة تجرجرا، وشعرة تجز جزا ، وشعرة تلتف لتفا ، وشعرة تحلق قسرا !

كلا ، ان الشعرة ليست كالشعرة ، فشعرة اصيلة واخرى مستعارة ، وشعرة زاهية واخرى ذاوية ، وشعرة مثمرة واخرى عقيم ، وشعرة تجد واخرى تلعب ، وشعرة يهزها الرعب واخرى تهتز نخوة ، وشعرة منيعة في لبدة الاسد، وشعرة منبوذة في جلد الخنزير ، وشعرة متصاغرة في جلد الكلب ، وشعرة من جلد كلب !

كلا ، ليست الشعرة هي الشعرة كما يقول الدكتور الشيبي وليست الشعرة في خنصر الشبلي هي التي في مفرق المتنبي ونتساءل : اذا كانت عبارة الشبلي مستغلقة مستعصية حتى انها عسرت على فهم الصوفية انفسهم ، واذا كانت عبارة المتنبي بادية الوضوح فكيف استطاع الدكتور الشيبي ان يوازن بين العبارتين ثم يقرر بعد ذلك بكل سهولة ويسر ان المتنبي قد اخذ عبارته من الشبلي ؟!

ونتساءل مرة اخرى : اذا كان الشبلي والمتنبي متعاصرين فلم لا يكون الشبلي هو الذي اخذ عبارة المتنبي ، وليس العكس؟ الحق ان العبارتين مختلفتان ، متباعدتان ، وحين يقام البرهان على الظن فما اسهل ان يقال : فلان اخذ من فلان !

* *

٥ ـ اثار الاستاذ الشيبي موضوعا طريفا هو جنون الشبلي، وقد حاول ان يقنعنا ان الشبلي كان يتظاهر بالجنون خوف البطش به ودفعا للاذى عن نفسه وحذرا من ان يصيبه ما اصاب الحلاج ، فقال في ص ٥٢ ما يلي :

« كان الشبلي يدرك الشبه الواضح بين اشاراته وكلمات الحلاج وحضر مقتله وقال لمن حوله : « كنت انا والحلاج شيئا واحدا الا انه اعلن وكتمت » ثم يمضي الاستاذ قائلا : « وكان الشبلي الى ذلك فقيها مالكيا يعلم ان توبة المرتد عنده لا تقبل و لابديل عن القتل اذا ما اقتيد الى مجلس الفقهاء بتهمة الحلول او الزندقة او الكفر او الردة فاتخذ مجنون ليلى

اسوة .. واتخذ الجنون جنة من المآخذ ومهربا من الحرج » ثم يروي لنا قول الشبلي مرة اخرى بشكل اخر فيقول في ص ٥٢:

« لما القي القبض على الحلاج بتهمة الحلول وما في معناه قال الشبلي : انا والحلاج شيء واحد ، فخلصني جنوني واهلكه عقله » ثم يصر الاستاذ على رايه ان الشبلي كان يتظاهربالجنون ويروح يبرر هذا الراي قائلا : « ولم يكن ادعاء الجنون غريبا على ابكياء المسلمين في ايام المحن » .

وكلام الاستاذ الفاضل هذا يبدو في ظاهره متماسك البناء الا انه في حقيقته منقوض من اساسه ، لان الاساس الذي استند عليه لا يصلح ان يكون اساسا . ذلك لانه اعتمد اولا واخيرا على قول الشبلي ، واقوال الشبلي اشارات ورموز ، ولكنه اخذ بظاهر هذا القول وفسره بمعناه الظاهري ولم يمعن النظر فيما يرمز اليه .

ويثار هنا تساؤل : اذا كان كلام الدكتور الشيبي لا يقوم على اساس واذا لم يكن الشبلي هلوعا جزوعا هيابا من الاذى والبطش ، واذا لم يكن مجنونا ولا متظاهرا بالجنون فما معنى قوله اذن : « كنت انا والحلاج شيئا واحدا الا انه اعلن وكتمت » وقوله : « انا انا والحلاج شيء واحد فخلصني جنوني واهلكه عقله » ؟

ان مفتاح هذا الرمز يبدو لنا واضحا في الحكاية التي يرويها صاحب (كتاب اخبار الحلاج) ففي الصفحة ٨٧ منه نقرأ ما يلي :

« قال احمد بن فاتك : رايت رب العزة في المنام كاني واقف بين يديه فقلت : يا رب ما فعل الحسين (بن منصور) حتى استحق تلك البلية فقال : اني كاشفته بمعنى فدعا الخلق الى نفسه فانزلت به ما رايت ! »(٣) .

فالحلاج اذن ـ من وجهة النظر الصوفية ـ قد اخطا حين اعلن السر الذي كوشف به لان مراعاة الاسرار وكتمانها من التزم ما ينبغي للصوفي ان يلتزم به ، وهو التزام منه امام ربه ، واي خروج عنه يعرضه الى الهلاك . ويريد الشبلي ان يقول انه هو الاخر قد كوشف بمثل ما كوشف به الحلاج الا انه آثر كتمان السر لا خوفا من بأس السلطان وانما التزاما منه بمراعاة السر وخوفا من رب السلطان .

اما كلمات : العقل والجنون والخلاص والهلاك ، فان الخوض فيها هو الخوض في مفاهيم الصوفية وطرائقهم ومذاهبهم وليس هنا مجال لذلك .

٦ ـ تحدث الاخ الشيبي عن علاقة الشبلي بمجنون بني عامر حتى اسرف في التعبير عن هذه العلاقة وحمل الالفاظ فوق طاقتها من المعنى فخرج كما سنرى عن حدود الموضوعية .

وكان بامكانه ان يخوض في بحثه بتوسع وعمق فيتحدث عن الصلة بين الشبلي والصوفية بوجه عام من جهة وبين (المجنون) من جهة اخرى ، وكان باستطاعته ان ينطلق في بحثه من منطلق الحب الذي يجمع بين الجانبين ، افراق المجنون في حب ليلاه ، وافراق الصوفية ومنهم الشبلي في الحب الالهي. ولكن الاخ الشيبي آثر ان يتحدث بشكل اخر .

يقول عن الشبلي (ص ٥٢) انه : « اتخذ مجنون ليلى اسوة » وانه « نازعه على زعامة العشاق » ويقول عن المجنون (في ص ٧٠) : « كان اسوة له وقدوة ومثالا » ثم يمضي قائلا « صار هذا الشاعر تاريخيا او اسطوريا اماما لشاعرنا في الغيبة عن الحس واعتزال الحياة الاجتماعية المتادة والتلبس بالعشق والفناء فيه » .

ويقول في ص ٧١ : « ولم يكن ذلك عند الشبلي عن اعجاب مجرد وانما صدر وتطور عن تاس مقصود وتخلق باخلاق هذه الشخصية » . ويقول : « وقد كان من تلبس الشبلي بشخصية المجنون وصدوره عن روحه انه نافسه في امارة الحب » .

ان هذا الكلام على اطلاقه يلغي الشخصية الصوفية للشبلي وينكر عليه اصالته العقائدية ، وهذا الكلام اضافة الى ذلك غير مقنع لانه يفتقر الى الدليل وتنقصه الحجة ، فليس بين الشبلي والمجنون في الواقع ثمة منازعة على زعامة ولا منافسة في امارة وليس هناك تلبس ولا قدوة ولا امامة ، كل ما هناك ان الشبلي كصوفي ، شانه شان الصوفية جميعا كان يلتقي مع المجنون في الحب والفناء فيه .

يقول السراج في كتابه اللمع ص ٤٦٦ :

« الغالب على سر الواجد وقلبه ذكر من يجد به ، يصف جميع احواله بصفات محبوبة ، مثل مجنون بني عامر كان اذا نظر الى الوحش يقول : ليلى ! وان نظر الى الجبال يقول : ليلى ! وان نظر الى الناس يقول : ليلى ! حتى اذا قيل له : ما اسمك وما حالك ؟ يقول : ليلى ! » .

والصوفية اهل احوال ومقامات وهم في وجد دائم ولهية وذهاب ، وذهاب عن الذهاب !

«واناشيد الصوفية تدور كلها حول الحب ، فالحب هو الاول ،والاخر في حياة اولئك الناس »(٤) .

والحب عند صوفية وحدة الوجود هو اساس عبادة كل معبود وهم يرون ان ليس في الوجود سوى الله تعالى وآثاره ولا معبود الا هو مجلىً من مجالي المعبود على الاطلاق ، المحبوب على الاطلاق ، الجميل على الاطلاق ، وهو الله تعالى ، وهذا هو دين الحب الذي اشار اليه ابن عربي في قوله :

اديـــن بدين الحب انى توجهت
ركائبه فالدين ديني وايمـــاني(٥)

---

(٣) كتاب اخبار الحلاج او مناجيات الحلاج لعلي بن الساعي، اعتنى بنشره وتصحيحه وتعليق الحواشي عليه لويس ماسينيون وبول كراوس . ويقول المحققان في هامش ص٨٧: ان هذه القصة وردت في كتاب تاريخ الصوفية لابي عبدالرحمن السلمي وفي تاريخ بغداد للخطيب وفي كتاب بداية حال الحلاج ونهايته لابن باكويه وترجمها الى الفارسية الهروي في طبقات الصوفية ونقلها عنه عبد الرحمن بن احمد جامي في كتابه نفحات الانس ،ووردت كذلك في شرح كتاب التعرف المنسوب الى السهروردي الحلبي وفي تذكرة الاولياء لفريد الدين العطار وفي كتاب سيرة بن خفيف لابي الحسن علي بن محمد الديلمي ، وذكرها ايضا محمد بن عبدالرحمن البخاري في كتابه محاسن الاسلام والشرائع .

(٤) التصوف الاسلامي ـ زكي مبارك ـ ج٢ ص ٢٢٨ .
(٥) فصوص الحكم ، ج٢ ص٥ . ويروى ايضا (.. فالحب ديني وايماني) .

ولعل من الطريف ان نذكر هنا ان بعضا من شيوخ الصوفية كانوا يرون ان من الاثم التلبس باهل الحقائق وكانوا يقولون : « ان التحلي والتلبس والتشبه لا يورث لصاحبه في الحسرة والندامة والعتب واللامة والشنار في يوم القيامة»(٦). فاذا كان هذا حال المتلبسين باهل الحقائق ، فكيف جاز للاخ الشيبي ان يقول لنا ان الشبلي ، وهو من اهل الحقائق ، كان يتلبس بشخصية المجنون ؟!

* *

٧ ـ اثار الدكتور الشيبي موضوعا جديدا هو العلاقة السلبية بين الشبلي وابي العتاهية وحاول ان يصل الى اسبابها فقال في ص ٧٥ ـ ٧٦ : « ان الشبلي اهمل ابا العتاهية اهمالا تاما ولعله نفره منه قول سلم الخاسر فيه من قطعة :

ما اقبح التزهيد من واعظ
يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقا
اضحى وامسى بيته المسجد

ثم قال : « ولعله سمع فيه قول ابن المعتز : (ويرمى بالزندقة مع كثرة اشعاره في الزهد والمواعظ وذكر الموت والحشر والنار والجنة) » ، ثم مضى قائلا : « ولعل الشبلي هذا مع سيرورة ابيات لابي العتاهية في عالم التصوف قديمه ومتاخره نصها :

ايا عجبا كيف يعصى الاله ام كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وتسكينة ابدا شاهد
وفي كل شيء له ايـة تدل على انه واحد »

هكذا بكل بساطة يقرر الدكتور الشيبي حقيقة صارخة على الظن وحده ، فهو يقول « ولعل الشبلي هذا » ماذا فعل؟ « اهمل ابا العتاهية اهمالا تاما » لماذا ؟ « لعله نفره منه قول (فلان) ، او لعله سمع فيه قول (فلان) !

واساله : اكل اخبار الشبلي قد وصلتنا ؟

كلا ، وما اكثر ما ضاع منها ، ولو قد وصلتنا كل اخباره لظهر لنا حينئذ وجه الصواب .

اما ان الشبلي قد نفر من ابي العتاهية لانه يزهد الناس ولا يزهد فهو راي في مقنع ، لان الشبلي كان يتمثل باشعار ابي نؤاس (كما يقول لنا الشيبي في ص ٧٣) وهو ابعد الناس عن الزهد !

اما ان الشبلي قد اهمل ابا العتاهية لانه سمع من يقول عنه بانه زنديق فهو الاخر راي في مقنع ، فما اكثر ما كان الصوفية انفسهم ينسبون الى الكفر ويرمون بالزندقة ! الم ينسب الشبلي نفسه الى الكفر ؟

ليس من المتصور الذن ان يعبا الشبلي بمثل هذه الاقوال .

وعندي ان هذا الموضوع ما كان ينبغي ان يثار اصلا ، وما جدوى اثارته وليس عندنا دليل لاثباته ولا برهان .

(٦) اللمع ـ ص ٥٢٩ .

اما اذا اصر الاستاذ الشيبي على اثارته فان الراي الاقرب الى القبول فيما اراه هو ان اشعار ابي العتاهية كانت تدور على السنة اهل الظاهر عموما من الفقهاء واصحاب الحديث وامثالهم والشبلي صوفي من اهل الباطن كان بعيدا عنهم وعما يتمثلون به من اشعار ، وهذا التبرير يتفق مع ما اورده الاستاذ الشيبي في ص ٥٤ نقلا عن (اللمع) ان بعض مشايخ الصوفية قال : « وقفت على الشبلي عشرين سنة فما سمعت منه كلمة في التوحيد ، كان كلامه كله في الاحوال والمقامات » .

فاذا كان هذا شان الشبلي فما حاجته الى ابي العتاهية واشعاره ؟

* *

٨ ـ في علاقة الشبلي بالبحتري يقول الدكتور الشيبي في ص ٧٤ ـ ٧٥ : « ومما يستوقف النظر في هذا المجال ان الشبلي لم يهتم بالبحتري ولم يتطرق اليه ، ولعل لاهتمام الاخير بظاهر المعنى وجمال الالفاظ وما عرف عنه من سلوك مادي واشياء اخرى لا نعرفها مدخلا الى ذلك » لم يؤكد هذا الراي في ص ١٤٩ فيقول : « ان الشبلي لم يقتبس من هذا الشاعر شيئا لتعارض الطابع بينهما من التفات الى المعاني الدفينة عند الشبلي والصوفية عموما وجمال الديباجة وحلاوة الالفاظ عند البحتري » .

ولست ادري لماذا اجهد الاستاذ الفاضل نفسه في ان ينزع من الشبلي اصالته الشعرية ، وان يزعزع الثقة في هذه الاصالة ؟ لماذا يريده ان ياخذ من الشعراء وان يقتبس منهم ؟

ثم ان الشبلي شاعر مقل ، وهو صوفي مشغول بوجده كل وقته لا يكاد يجد فراغا لكل هؤلاء الشعراء . ومما يستوقف النظر في كلام الدكتور الشيبي هو هذا التبرير الغريب الذي جاء به ، جمال الالفاظ وحلاوتها عند البحتري هو الذي نفر الشبلي منه ! وهذا القول لا يتفق وواقع الصوفية لانهم عموما يهيمون بالجمال : يحبون الوجه الجميل والصوت العذب ، فلماذا اذن ينفر الشبلي ، وهو منهم ، من جمال الفاظ البحتري وحلاوتها ؟

واضح ان هذا التبرير غير مقنع ولعل التبرير الاقرب الى القبول ـ اذا كانت ثمة حاجة للتبرير ـ هو ان البحتري كان من دعاة فكرة الحق الالهي او التفويض الالهي للملوك ، وقد اسرف في نشرها والتبشير بها ، الم يقل مخاطبا المتوكل :

وارى الخلافة وهي اعظم رتبة
حقا لكم وورثة ما تنزع
اعطاكموها الله عن علم بكم
والله يعطي من يشاء ويمنع

ومن هذا المنطلق ، لا من حلاوة الالفاظ ، ينبغي النظر الى التنافر بين الشبلي والبحتري .

* *

٩ ـ اثبت الدكتور الشيبي في ص ٩٩ بيتين من الشعر للشبلي كما وردا في رسالة الغفران لابي العلاء المعري وهما :

باح مجنون عامر بهواه
وكتمت الهوى ففزت بوجدي

واذا كان في القيامة نودي
اين اهل الهوى ؟ تقدمت وحدي

وقال في الهامش ان الشطر الثاني من البيت الثاني ورد في ديوان الصبابة وتزيين الاسواق بهذا الشكل :

« من قتيل الهوى ؟ تقدمت وحدي »

ثم قال : « وان صح ان ينسب هذا الشعر الى الشبلي لم يسغ ان يتضمن القتل كما هو واضح وتبقى رواية ابي العلاء هي المعقولة » .

ونتساءل : لماذا لا يسوغ ان يتضمن هذا الشعر كلمة القتل ؟

ان بيت جرير يجري على كل لسان :

ان العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وان بيت ابن الفارض الصوفي المعروف يتردد في الافواه:

ما بين معترك الاحداق والمهج
انا القتيل بلا اثم ولا حرج

ثم اليس الشبلي نفسه هو القائل :

قال سلطان حبه انا لا اقبل الرشا
فسلوه ـ فديته لم يقتلي تحرشا(٧)

ويقول لنا الاستاذ الشيبي ان ابا العلاء المعري قد علق على شعر الشبلي هذا لم يثبت نص تعليق المعري كما هو دون ان يناقشه واغلب الظن انه يؤيده ونصه كما يلي:

«فان صح ان هذين البيتين له فلا يمتنع ان يعترض عليه قائل فيقول : ان ادعاءه الانفراد من العشق لا يسلمه اليه البشر : ان كان هواه للمخلوقين او الخالق فله في الامم نظراء كثير » .

ترى متى كان الشعراء يحاسبون بحساب المنطق ؟ انهم ابدا يصعدون ويصوبون وينجدون ويغورون ويشرقون ويغربون ثم يناموا ملء جفونهم ويظل الناس ساهرين ينظرون فيما قالوه ويتناظرون . ثم ان منطق الشبلي يتفق ومذهبه في الحب ،فان المحب المتفاني في حبه لا يحس الا بحبه وحده ولا يمكن ان يبلغ تصوره ان هناك من يحب مثل حبه..

صحيح ان للشبلي نظراء في العشق ، هذا من وجهة نظر الاخرين ، اما من وجهة نظره هو ، فهو المنفرد في العشق ، لا لانه يكابر او يدعي بل لانه لا يحس الا بعشقه وحده ، وليس بمقدوره ان يدرك عشق العاشقين ، الى اي عمق والى اي مدى!

* *

١٠ ـ يتضمن الملحق الثاني للديوان اشعارا تمثل بها الشبلي ومنها هذا البيت :

تمنيت نارا استضيء بضوئها
فلما اضاءت احرقتني شعاعها

وقال الدكتور الشيبي في تحقيقه (هامش ص ١٦٤):

« قدم الشبلي لتمثله لهذا البيت بمناجاة جميلة لمبراع فيها قواعد النحو وهي : (الهي انت انت ، لا يعلم احدكيف انت الا انت . الناس كلهم يريدون انت ولكن لا يعلمون من تريد انت . الهي كنت اتمنى معرفتك فلما عرفتك وقع اسمي في ديوانك ولا يمكنني الهرب فلا استطيع المكث مع الله ، وليتني لم اعرفك فانا كما قال الشاعر .. (البيت) »

احقا ان هذه القطعة العميقة لا تستحق الا ان يكتب عنها هذه الكلمات : « لم يراع فيها قواعد النحو » ؟ . وللوهلة الاولى يبدو لنا ان الشبلي لم يلتزم هنا بقواعد النحو ، ولكن حين ننظر الى كلامه نظرة اكثر عمقا فسنرى ان الشبلي قد التزم في الواقع بهذه القواعد فهو لم يستعمل (انت) ضميرا للمخاطب ، وانما اعطى الضمير صفة التشخيص فهو هنا(ذات) قائمة بذاتها لها القابلية على الفعل وعلى الانفعال ، فهي فاعلة ومنفعلة ،وبهذه الصفة وحدها ينبغي ان تفهم (انت) الشبلية.

وفي الحق ان (انت) و (انت .. انت) هذه تستحق النظر اليها من غير جانب النحو ، كان تقابل مثلا مع (انا) الحلاج ، (انا الحق) و (بيني وبينك اني يزاحمني) ، وكان تقارن مثلا مع العبارة الصوفية (انا انت وانت انا) والتي فسرها الشبلي بقوله (انا غائب بك عن نفسي ، توهمت اني انت)(٨)وكان توازن مثلا مع (انت هو لا هو ، وهو انت لا انت) لابن عربي اي انت هو على الحقيقة ولست هو من حيث صورتك وهي تشير الى فلسفته في وحدة الوجود .

* *

١١ ـ يقول الدكتور الشيبي في ص ٧٧ ـ ٧٨ ان الشبلي كان « يعبر عن كرهه للاعياد والتزين فيها لفلسفة خاصة مؤداها :

اذا ما كنت لي عيدا فما اصنع بالعيد ؟
جرى حبك في قلبي كجري الماء في العود

فقال في ذلك حتى اكثر ومنه :

الناس في العيد قد سروا وقد فرحوا
وما سررت به والواحد الصمد
لما تيقنت انـي لا اعاينكم
غمضت طرفي فلم انظر الى احد »

ثم يروح يعلل ذلك بقوله : « وذلك لان العيد يعني انقطاع الانسان لنفسه ومسراته وعنايته باهله واصدقائه وانصرافه الى حظوظه وشؤونه ، وكل هذا في عالم التصوف يشغل عن التوجه الى المثل الاعلى فكانه مشغلة وفترة وعود الى الدنيا من غير طائل » .

ثم يستشهد بابيات اخرى للشبلي في العيد حتى ليكاد يضيق ذرعا به وبعيده فيقول : « فاستطال عيد الشبلي حتى صار عمرا على الضد من اعياد الناس القصيرة ، واجتمع فيه ـ بدل اللذات ـ طول الحميم والدموع الواكفة ، وكل هذا في سعادة لا تنتهي وعلى غير ما الفه الناس . وكيف يكون ذلك مألوفا والعيد عند الشبلي مأتم مظاهره ثياب الزرق والسود والتعديد والنائحة ! » .

---

(٧) ص ١٠٧ من الديوان .

(٨) اللمع ـ ص ٤٣٧ .

ويثار ها هنا تساؤل : هل حقا ان الشبلي كان يكره العيد لسرور الناس فيه ، أم ان وراء ذلك غرضا اخر ينبغي الكشف عنه والوقوف عليه ؟

الاجابة على هذا التساؤل تستلزم تحديد معنى العيد في عصر الشبلي ، ومعناه على اطلاقه ينبغي الا ينصرف الى سرور الناس المحكومين وانما الى سرور (الناس) الحاكمين، فالعيد في هذا العصر كان يعني مهرجان السلطان وحاشيته واعوانه ، مهرجان لاظهارجبروت الحكم وسطوته، فتلك هي جيوش السلطان بعددها وعديدها ، تكاد الارض تميد بثقلها وهي تسير جحفلا اثر جحفل ، وذاك الدعاء للسلطان يرتفع مدويا يكاديصم الاذان فوق كل مأذنة وفوق كل منبر ، وفي كل مكان ولائم تقام للاعوان ، وثمة خلع تخلع على الحاشية والمقربين والانصار، وعطايا وهبات لمن حظي برضا السلطان فاكرمه السلطان !

ولكي تبدو لنا صورة العيد بشكل اوضح ، أتمثل هنا بابيات من قصيدة للبحتري قالها في مدح المتوكل :

بالبر صمت وانت افضل صائم
وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عيدا انه
يوم اغر من الزمان مشهر
اظهرت عز الملك فيه بجحفل
لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت
عددا يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعي
والبيض تلمع والاسنة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها
والجو معتكر الجوانب اغبر

ثم يخاطب الخليفة قائلا :

حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت
تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
ورنا اليك الناظرون فاصبح
يومي اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها
من انعم الله التي لا تكفر

ثم يقول :

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابسا
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ووقفت في برد النبي مذكرا
بالله تذكرة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الذي
يعتادها وشفاؤها متعذر

حتى لقد علم الجهول واخلصت
نفس المروى واهتدى المتحير
صلوا وراءك آخذين بعصمة
من ربهم وبذمة لا تخفر

الى ان يقول :

فاسلم بمغفرة الاله فلم يزل
يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
الله اعطاك المحبة في الورى
وحباك بالفضل الذي لا ينكر(٩)

هذا هو معنى العيد عند الشبلي ، عيد السلطان واعوانه والى هذا المعنى يشير البيتان اللذان نسبا الى الشبلي (ص١٥١) .

ليس عيد المحب قصد المصلى
وانتظار الجيوش والاعوان
انما العيد ان تكون لدى الحب مقربا في الامان .

فالشبلي اذن كان يتحدى عيد السلطان ولم يكن من قصده التصدي لمسرات الناس في عيدهم ، وما ابعد الفرق بين العيدين !

* * *

١٢ ـ قال الدكتور الشيبي (ص ٥٨) : « وعلت مكانة الشبلي في اخريات ايامه فعد من عجائب بغداد في التصوف» ثم قال : « وتبدل الشبلي في هذه الايام غير ايام بدايته». كيف تبدل الشبلي ؟ لنقرأ ما يقال عنه في ص ٥٩ : « وبلغ امر الثقة بالشبلي ان قلل من شان ابي يزيد البسطامي فقال فيه : « لو كان ابو يزيدالبسطامي ـ رحمه الله ـ ها هنا لاسلم على يد بعض صبياننا ! » .

احقا هكذا قال الشبلي ؟ احقا قصد بقوله هذا التقليل من شان ابي يزيد البسطامي ؟

ان الاستاذ الشيبي قد اقتبس هذا القول ـ كما يقول لنا ـ من كتاب اللمع للسراج . وناخذ اللمع ونتصفحه لنقف عند الصفحة ٤٧٩ منه فنقرأ فيها ما نصه :

« وحكي عن الشبلي ، رحمه الله : انه سئل عن ابي يزيد البسطامي رحمه الله وعرض عليه ما حكي عنه مما ذكرناه وغير ذلك فقال الشبلي رحمه الله : لو كان ابو يزيد رحمه الله ها هنا لاسلم على يد بعض صبياننا وقال : لو ان احدا يفهم ما اقول لشددت الزنانير »(١٠) ـ انتهى .

هي اذن حكاية حكيت عن الشبلي ولا يدري احد من حكاها ،

ثم ان الاستاذ الشيبي يغفل اهم ما فيها حين يتجاوز في اقتباسه استدراك الشبلي ، فالشبلي هنا يقول قوله في البسطامي لم يحلم من يستمع الى هذا القول ان لا ياخذه

(٩) ديوان البحتري . تحقيق رشيد عطية ـ ج١ ص ١٧ .
(١٠) الزنانير : جمع (زنار) وهو ما يشد على الوسط .

على ظاهره ويتحدى السامع ان يدرك القصد الذي اراده ، وهو واضح وصريح في هذا حين يقول : لو ان احدا يفهم ما القول لشددت الزنانير !

لا يمكن اذن لاي احد ان يفهم المعنى الذي اراده الشبلي بهذا القول ، هو نفسه قال لنا : لا تتعبوا انفسكم فحيثما تحاولون ! هو وحده يعرف ما اراد بهذا القول وهو يابى الا ان يحتفظ بالسر لنفسه !

ويذكر السراج ان الجنيد كان يرى في قول الشبلي : لوكان ابو يزيد عندنالاسلم على يد بعض صبياننا ، انه يعني:لاستفاد من المريدين الذين هم في وقتنا . وحتى لو اخذنا بهذا التفسير فانه لا يعني اطلاقا التقليل من شان البسطامي ، فانالاستفادة من المريدين لا تقلل من شان المستفيدين ، والحكمة تؤخذ حتى من افواه المجانين .

هذا الى ان نهج الجنيد في التصوف كان يتعارضوالاتجاه الذي سلكه الشبلي ، وقد انكر الجنيد على الشـــبلي كما انكر على الحلاج ، وهو الذي قال :

« قد اوقف الشبلي رحمه الله في مكانه ، فما بعد ، ولو بعد لجاء منه امام »(١١) . وقال فيه ايضا : « الشبلي رحمه الله سكران ولو افاق من سكره لجاء منه امام ينتفع به »(١٢)

ثم كيف رتب الدكتور الشيبي حكما على الشبلي بحكاية حكيت عنه ؟ ان هذا الحكم ما دام قد بني على الحكاية فلا يعتد به اصلا !

قال السراج في كتابه اللمع وهو يدافع عن البسطامي ويرد على من طعن عليه وكفره : « كيف يجوز ان نعتقد فيه الكفر بحكاية تحكى عنه ولم نعرف ارادته فيما قال ولم نطلع على حاله في الوقت الذي قال ؟! وهل يجوز لنا ان نحكم عليـه فيما يبلغنا عنه الا بعد ان يكون لنا حال مثل حاله ووقت مثل وقته ووجد مثل وجده ؟ اوليس قد قال الله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم »(١٣)

ان هذا القول في الدفاع عن ابي يزيد البسطامي يصلح كذلك دفاعا عن الشبلي حين يقال عنه انه قال من شان ابي يزيد البسطامي !

---

(١١) اللمع ـ ص ٤٨٨ .
(١٢) اللمع ـ ص ٣٨٢ .
(١٣) ص ٤٧٣ .